

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ وَنَبَلُّوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } ١٤٤١/٧/٢٥

أيها المسلمون: إنَّ الله عز وجل يبتلي عباده بما شاء لحكمة، فيصبرُ المؤمنُ ويرضى؛ رغبةً فيما أعدَّه اللهُ للصَّابرين الراضيين. أخرج الترمذي وابن ماجه، وحسنه العلامةُ الألباني رَحِمَهُ اللهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ».

وعند الابتلاء يتبينُ الصادقُ مِنَ الكاذبِ، قال اللهُ تعالى: { أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } . وهذا استفهامٌ إنكاريٌّ، والمرادُ أنَّ اللهُ تعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم مِنَ الإيمانِ، أخرج ابنُ ماجه، وقال العلامةُ الألباني رَحِمَهُ اللهُ: حسنٌ صحيحٌ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ».

عبادَ اللهُ: إنَّ اللهُ عز وجل لا يفعلُ إلا لحكمة، ومن ذلك الابتلاءُ للمؤمنين، وهذا فيه فوائد، منها:

الأول: استخراجُ عبوديةِ الضراءِ، وهي الصبرُ: أخرج مسلمٌ عن صُهَيْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ

فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

الثاني: تكفير الذنوب والسيئات: أخرج مسلم عن أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ وَلَا سَقَمٍ وَلَا حَزَنٍ، حَتَّى الْهَمُّ يُهْمُهُ إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ».

الثالث: رفع الدرجات: أخرج أحمد وأبو داود، وصححه العلامة الألباني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ أَبِي خَالِدِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ خَرَجَ زَائِرًا لِلرَّجُلِ مِنْ إِخْوَانِهِ، فَبَلَغَهُ شَكَاتُهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: أَتَيْتَكَ زَائِرًا عَائِدًا وَمُبَشِّرًا، قَالَ: كَيْفَ جَمَعْتَ هَذَا كُلَّهُ؟ قَالَ: خَرَجْتُ وَأَنَا أُرِيدُ زِيَارَتَكَ، فَبَلَغْتَنِي شَكَاتُكَ، فَكَانَتْ عِيَادَةً، وَأَبَشَّرَكَ بِشَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِذَا سَبَقَتْ لِلْعَبْدِ مِنَ اللَّهِ مَنْرَلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ ابْتِلَاءُ اللَّهِ فِي جَسَدِهِ، أَوْ فِي مَالِهِ، أَوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَّرَهُ حَتَّى يُبْلِغَهُ الْمَنْرَلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنْهُ».

الرابع: يودُّ أهل العافية يوم القيامة لو أنَّ جلودهم كانت قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ: عَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُودُّ أَهْلَ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلَ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ».

الخامس: النجاة مِنَ النَّارِ: أخرج الترمذي وابن ماجه، وصححه العلامة الألباني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ عَادَ مَرِيضًا وَمَعَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنْ وَعْكَ كَانَ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَبَشِّرْ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ هِيَ نَارِي أُسَلِّطُهَا عَلَى عَبْدِي الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا؛ لِتَكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ».

عباد الله: إِنَّ لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَسْبَابًا: الْأَوَّلُ: قَوْلُ: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ

رَاجِعُونَ}، اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَجْرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلِفْ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا. فَلَمَّا تُوِّفِيَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ، رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

الثاني: تقوى الله، وحفظ أوامره، قال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}. وأخرج أحمد وصححه العلامة أحمد شاكر رَحِمَهُ اللهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا غَلَامُ أَوْ يَا غُلِيمٍ، أَلَا أَعَلَّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ».

الثالث: ملازمة الاستغفار، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ: فهذا مانع من وقوع العذاب بهم بعدما انعقدت أسبابه.

الرابع: التحلي بكمكارم الأخلاق: أخرج الشيخان عن خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَمَّا جَاءَهَا يَرْجُفُ فُؤَادُهُ: «كَلَّا، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ».

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي الْمَنْهَاجِ: قَالَ الْعُلَمَاءُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: مَعْنَى كَلَامِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: إِنَّكَ لَا يُصِيبُكَ مَكْرُوهٌ لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ فِيكَ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَكَرَمِ الشَّمَائِلِ، وَذَكَرْتَ ضُرُوبًا مِنْ ذَلِكَ. وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَخِصَالِ الْخَيْرِ سَبَبُ السَّلَامَةِ مِنْ مَصَارِعِ الشُّوْءِ.

أيها المسلمون: إن من عقيدة أهل السنة طاعة ولاة الأمور في غير معصية الله تعالى، وحرمة الخروج عليهم ولو جاروا وظلموا، وإنما الواجب الصبر على ظلمهم: أخرج الشيخان عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَضْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً».

وأخرج الشيخان أيضًا عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُتَكْرَمُ بِهَا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ مِنْنَا ذَلِكَ؟ قَالَ: تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ».

أخرج أبو القاسم ابنُ عساکر في: «تاريخ دمشق»، عن عمرو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَوْصَى ابْنَهُ فَقَالَ: يَا بَنِيَّ، سُلْطَانٌ غَشُومٌ ظَلُومٌ خَيْرٌ مِنْ فِتْنَةٍ تَدُومٌ.

وأخرج ابنُ سعدٍ في «الطبقات» عنِ الحسَنِ البصريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَوْ أَنَّ النَّاسَ إِذَا ابْتُلُوا مِنْ قِبَلِ سُلْطَانِهِمْ صَبَرُوا مَا لَبِثُوا أَنْ يُفْرَجَ عَنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ يَجْزَعُونَ إِلَى السَّيْفِ، فَيُوكَلُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا جَاؤُوا بِيَوْمٍ خَيْرٍ قَطُّ.

وقال البرهاري رَضِيَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «السُّنَّةُ»: وَمَنْ خَرَجَ عَلَى إِمَامٍ مِنْ أئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ خَارِجِيٌّ، وَقَدْ شَقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ، وَخَالَفَ الْآثَارَ، وَمَيْتَتُهُ مَيْتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ. وَلَا يَحِلُّ قِتَالُ السُّلْطَانِ، وَلَا الْخُرُوجُ عَلَيْهِ وَإِنْ جَارَ، وَذَلِكَ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ: «اصْبِرْ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا»، وَقَوْلُهُ لِلْأَنْصَارِ: «اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ». وَلَيْسَ مِنَ السُّنَّةِ قِتَالُ السُّلْطَانِ؛ فَإِنَّ فِيهِ فِسَادَ الدِّينِ وَالْدُنْيَا.

فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ، وَالتَّقُوا حَوْلَ وَلاةِ أُمُورِكُمْ، وَاحْذَرُوا الْفِرْقَةَ وَالتَّنَازُعَ، وَاحْذَرُوا الْإِشَاعَاتِ وَالْفُوضَى، وَكَمَا أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ».